

عليه الا القليل . وغاية ما يقال في هذا الباب : ان فصاحة هي الظهور والبيان
في أصل الوضع القوي ، يقال : أضحى الصبح اذا ظهر . ثم انهم يتقنون عند
ذلك ولا يكتشفون عن السر فيه (١) . ولا تبيين الفصاحة بهذا القول لانه يعترض
عليه بوجوه من الاعتراضات :

الاول : انه اذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيباً لم يكن فصيحاً ، ثم اذا ظهر وتبين صار
فصيحاً .

الثاني : انه اذا كان اللفظ لتصبح هو الظاهر اليقيني فقد صار ذلك بالنسب
والاضافات الى الاشخاص ، فان اللفظ قد يكون ظاهراً قريباً ولا يكون ظاهراً
لعمرو ، فهو اذن فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا . وليس كذلك ، بل
التصبح هو فصيح عند الجميع لا يخلاف فيه مجال من الاحوال ، لانه اذا تحقق
حدّ الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به اخلاف :

الثالث : انه اذا جره بلفظ فيصح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغي
أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لان الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف فيصح .
فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل : ان اللفظ لتصبح هو الظاهر
اليقيني . ومعنى ذلك ان ابن الاثير لا يأخذ بهذا القول الذي اثار حيرته فمضي يبحث عن
تعريف للفصاحة ، ويحقق القول فيها . وقد شرح المسألة بوضوح فقال ان المقصود
: ان الكلام لتصبح هو الظاهر اليقيني ، ان تكون الفاظه مفهومة لا يحتاج فهمها
إلى استخراج من كتاب لغة ، وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوقة الاستعمال
بين ارباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ، وانما كانت مألوقة الاستعمال دائرة
في الكلام دون غيرها من الالفاظ لكان حسنها ، وذلك ان ارباب النظم والنثر
غربوا اللغة باعتبار الفاظها وسبوا وفسوا واختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه
وقروا الفصح منها فلم يستعملوه ، فحسن الالفاظ سبب استعمالها دون غيرها

(١) انظر السراج ١ ص ٦٤ .

واستعمالا دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، فالقصرح من الالفاظ هو الحسن .
فان قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعمالوه
وعلموا القبيح منها حتى تقوه ولم يستعملوه ؟

قيل لهم : إن هذا من الامور المحسوسة التي شاهدها في نفسها ، لان الالفاظ داخلة
في حيز الاصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، والذي
يكرهه وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى ان السمع يستلذ صوت الببل من الطير
وصوت الشحرور ويميل اليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره
نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ، والالفاظ جارية هذا المجرى فانه
لاخلاف في أن لفظه المنة و الديمة حسنة يستلذها السمع ، وان لفظه العاق
قبيحة يكرهها السمع . وهذه المقطعات الثلاثة من صفة الطير ، وهي تدل على معنى واحد ،
ومع هذا فانك ترى لفظي المنة و الديمة وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال
وترى لفظ العاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وان استعمال فلما
يستعمله جاهل بحقيقة القصاحة أو من ذوقه غير سليم .

لقد ثبت ان القصرح من الالفاظ هو الظاهر البين ، وانما كان ظاهرا بينا
لانه مأروف الاستعمال ، وانما كان مأروف الاستعمال لكان حسنة ، وحسنه متروك
بالسمع ، والذي يترك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يتألف عن مطارج الحروف ،
فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف
بالقصاحة والقبيح غير موصوف بالقصاحة لانه ضد ما كان قبحه . ولو كساست
لقصاحة لأمر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس
منها حسن ومنها قبيح ، وثا لم يكن كذلك علم انها تخص القفظ دون المعنى .
وان الاير لم ينعزل بين اللفظ والمعنى في هذا القول وانما خص القفظ بصفة هي له
والعنى يحى فيه ضمنا وتبعا .

واشار الى القصاحة عند المتقدمين فقال : وقد ذكر من تقدمني من علمائه
البيان للالفاظ المقررة خصائص وهيئات تصف بها ، واختلفوا في ذلك ، واستحسن

احدهم شيئا فخرولف فيه وكذلك استبح الآخر شيئا فخرولف فيه ، ولو حققوا
النظر ووقفوا على السر في انصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقيح لما كان
بينهم خلاف في شيء منها ، (١) .

ورد رأي من ذهب الى ان كل الالفاظ حسن وقال : « ومن يبلغ جهله الى
ان لا يفرق بين لفظه بالخصن ، ولفظة «السلوج» ، وبين لفظه «الدامة» ولفظة
«الاسنط» ، وبين لفظه «السيف» ولفظة «الخشليل» ، وبين لفظه «الاسد» ولفظة
«التدوكس» ، فلا ينبغي ان يطالب ولا يجاب به جواب ، بل يترك وشأنه كما قيل :
« اتركوا الجاهل بجهله ولو اتى البحر (٢) في رحله ، وما مثاله في هذا النقام الا كمن
يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها
كلوة وشعر تظط (٣) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية يلبسها مشربة بمحرة ذات
عند اسيل وطرف كحيل ، ويسم كأنما نظم من افاح ، وطرة كأنها ليل على صباح .
فانما كان بالسان من سقم النظر ان يُسَوِّي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد ان يكون به
من سقم النظر ان يُسَوِّي بين هذه الالفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في
هذا النقام فان هذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب . ثم قال : « ومن له
ادنى بصيرة يعلم ان للالفاظ في الاذن لذة لذيفة كنفسة أوتار ، وصوتها متكررا
كصوت حمار ، وأن لها في القم ايضا حلوة كحلوة العسل ومرارة كمرارة
الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى التلذذات والظنوم ، (٤) .

وذكر ان ابن ستان قد تحدث عما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها
عدة السام - كما مر - وفيما قاله ابن ستان لا حاجة اليه ، لان تباعد المخارج

(١) اللال السائر ح ١ ص ١٢٨ .
(٢) البحر : مايس من القدرة في البحر أي البحر ، أو لغير كل ذات منظر من السباح .
(٣) الشعر التظط : القصير الجميد .
(٤) اللال السائر ح ١ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

يشمل معظم اللغة العربية ، وإن جريان الثقافة على العرف العربي ليس مما يوجب لها حسنا ولا قبحا ، وإنما يفتح في معرفة مستعملها بما يتقله من الألفاظ ، وإن تغيير للكلمة مما لا حاجة إلى ذكره لأن المعنى يسوق إليه . أما الأوصاف الأخرى التي ذكرها ابن سنان فقد انقأ عليها ابن الأثير بحثه في الألفاظ فقبل منها ما قبل ورفض ما رفض ، وشرح تلك الأوصاف بما يفتني عن كثير من الكتب ، وكانت دراسته من أوسع الدراسات وأصفها ولم يأت بعده من أضاف إليها ، والنهج الذي اتبعه في التلخيص والقضاء على التزعة الأدبية التي اتسمت بها دراسة ابن الأثير .

السكاكي :

وعندما قسم السكاكي (- ٥٦٢٦) لبلافة إلى علومها لم يعقد لفصاحة فصلا وإنما تكلم عليها بعد أن انتهى من علم البيان ، وذكر أنها قسمان : -
الأول : راجع إلى المعنى وهو عُلُوص للكلام من التعليل .

وشرح تعليل الكلام وقال : هو أن يعثر صاحبه الفكر في متصرفه ويشيك الطريق إلى المعنى ، كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مُسَلَكاً أير أمه حسبي أبوه يقاربه
وكقول أبي تمام :

ثابته في كيد السماء ولم يكن كاتبين لأن إذ هما في المسار
أما غير المقيد فهو أن يفتح صاحبه للفكرة الطريق ويمهده (١) .

الثاني : راجع إلى اللفظ ، وهو :

١- أن تكون الكلمة عربية أصيلة ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدْوَرَّ واستعملهم لها أكثر ، لا مما أحلتها المولودون ولا مما أعطت في اللغة .

٢- وأن تكون أجري على قوانين اللغة .

٣- وأن تكون سليمة من التناقض .

(١) مفتح العلوم ص ١٩٦-١٩٧ .

وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة التي حصر مرجعها في المعاني والبيان، ولم يجعل الفصاحة مرجعاً في شيء منهما، وهو في ذلك يتابع عبد القاهر والرازي الذين نظرنا إلى النظم ولم يوليا اللفظ المفرد أهمية كبيرة.
ابن مالك :

واختصر بدر الدين بن مالك (- ٨٦٨٦) القسم الثالث من «مفتاح العلوم» وتكلم على الفصاحة وأطلق عليها اسم البديع الذي قال عنه وهو معرفة توابع الفصاحة وعرف الفصاحة بأنها «صوغ الكلام على وجه له توفيق بتمام الألفاظ لمعناه وتبيين المراد منه» (١). وقسمها إلى معنوية ولغوية، وذكر ما في «مفتاح العلوم» من صفاتها، ثم قسم المعنوية إلى مستحصاة بالألفاظ والتبيين ومستحصاة بالتبيين والتحسين. وهذه الأنواع الثلاثة هي علم البديع عند المتأخرين:
القرظوني :

وحيثما جاء الخطيب القرظوني (- ٨٧٣٩) وجد الطريق ممهداً فأخذ عن علماء البلاغة المتقدمين ورتب بحث الألفاظ ترتيباً علمياً خالف فيه السكاكي وبدر الدين، لأنه اتخذها مقدمة لبلاغة، وفي هذه المقدمة التي كانت كشفاً عن معنى الفصاحة والبلاغة والحصار علم البلاغة في المعاني والبيان - تكلم على صفات الألفاظ وما ينبغي أن تكون عليه. وكان يحث ألباناً باتخاذ الفصاحة مقدمة لعلوم البلاغة بعد أن كانت موضوعاً تشيع فيه الحياة (٢).

بدأ القرظوني مقدمته بقوله : « الناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أمثال مختلفة لم أجد - فيما بلغني منها - ما يصلح لتعريفهما به ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما للتكلم ، فالأولى أن تقتصر

(١) الصباح ص ٧٥.

(٢) ينظر القرظوني «شرح المنهاج» ص ٢٤٩-٢٨٣.

على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين ، (١). وهذا غير صحيح ، لان البلاغين
 اهتموا بهما ووضعوا لهما حدوداً وفرقوا بينهما ، وكانت بحوث الجاحظ ولقدامة
 وأبي حلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الأثير من أرواح ما كتب وأبدع ما خطه
 يد بلاغي ناقد ، وما مقدمة القزويني إلا خلاصة هذه الدراسات ، فكيف لم يترك
 القدماء تعريفاً للتصاحح أو البلاغة بسكن الركون إليه ، ولعله في ذلك متأثر بدعوى
 عبد القاهر الذي يقول : « لم أزل منذ خلعت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى
 التصاحح والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان الغزى من هذه العبارات وتفسير المراد
 بها فأجد بعض ذلك كالترمز والاشارة في خطاه ، وبعضه كالتنبية على مكان الخبيث
 ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج » (٢) ويقول : « انا لم ترّ المغلاة قد
 رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاماً للاولين ويتدارسوه ،
 ويخلم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ،
 ويكون عندهم أن يسألوا عن بيان له وتفسير ، إلا علم التصاحح فانك ترى طبقات
 من الناس يتداولون فيما بينهم القاطن للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى
 أصلاً أو يستعملوها ان يسألوا عنها أن يذكرها لها لتفسيراً يصح » (٣).
 وهذا صحيح في عهد التأليف الاول وعند عبد القاهر الذي لم يفرق بين المصطلحين ،
 لانهما عنده يبرر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا
 وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراموا أن يملوهم ماني نفوسهم ويكشفوا
 لهم عن ضمائر قلوبهم (٤) ، اما القزويني فالامر عنده مختلف ، لان مصطلحات
 البلاغة استقرت في عهده وأصبح للتصاحح والبلاغة محتوى واضح .
 والتصاحح والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعتين :
 الاول : الكلام كما في « تصديده فصيحة أو بليغة » و « رسالة فصيحة أو بليغة »

(١) الايضاح ص ٢.

(٢) دلائل الامجاز ص ٢٨.

(٣) دلائل الامجاز ص ٣٥.

(٤) دلائل الامجاز ص ٣٥.

أو يخرج له وجه بعيد كما في قول العجاج :

وفاحماً ومزسناً مسرجاً

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجاً » حتى اختلف في تخريجه ، فقبل : هو من قولم للسيوف « مرهبة » منسوبة إلى قين يقال له سريج ، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السرجي . وقيل من السراج ، يريد أنه في البريق كالسراج ، وهذا يترتب من قولم : « سرج وجهه أي : حسن » ، و« سرج الله وجهه » أي : بيده وحسنه .

وهذا بحث أعم به النقاد والبلاغيون كما بن ستان الذي عاب الذين يكتفون من الوحشي الغريب في كلامهم وذكر ما وقع فيه بعضهم فخرج كلامه عن القصاحة وبعد عن الفهم (١) . وكان الأثير الذي يرى أن الوحشي ليس المستخرج من الالفاظ وإنما هو قسمان : غريب حسن ، وغريب قبيح (٢) .

٣- مخالفة القياس اللغوي : كقول الرازي :

الحمدُ لله العليُّ الأجلُّ الوهابُ القليلُ الكريمُ المنجزُ
فإن القياس « الأجل » ، بالأدغام .

ولم يوضع مخالفة القياس ، وكان ابن ستان قد تكلم عليه ووضحه وأدخل فيه كل ما ينكره أهل اللغة ويردّه علماء النحو عن التصرف القاسد في الكلمة (٣) . ووضع النزويبي قاعدة لفظة التصبيحة فقال : « ثم علامة كون الكلمة تصبيحة أن يكون استعمال العرب المثلوق بربيتهم لها كثيراً أو أكثر من استعمالها ما يستعملها (٤) . وبعد أن انتهى من شروط لفظة التصبيحة تحدث عن فصاحة الكلام وهي :

١- خلوصه من ضعف التأليف : ومثل له بقوله : « ضرب غلامه زيداً ، فإن رجوع الضمير إلى الفعل للتأخر لفظاً يمنع عند الجمهور . فلا يلزم رجوعه إلى ما هو متأخر لفظاً ورتبة ، وقيل يجوز لقول الشاعر :

(١) سر القصاحة ص ٧٥ .

(٢) اللؤلؤ السراج ص ٥٧ ، ١٥٥ ، ١٦٣ .

(٣) سر القصاحة ص ٨٢-٩١ .

(٤) الأيضاح ص ٤ .

جزى ربه صني عدي بن حاتم - جزاه الكلاب لصاوبات وقد فعل
٢ - التناثر: وهو أن تكون اللفاظ بسببه متناهية في الثقل على اللسان متتابعة كما
في البيت الذي أشده الجاحظ :

وقبر حسب بمسكان قفر وليس قسرب قسرب حرب قبر
ومنه ما دون ذلك كقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى
وسبب التناثر في « أمدحه » ما بين الحاء والماء من تناثر لانهما حلقيان ، وتكرار
الكلمة في الشرط والجزاء .

٣ - التعقيد : وهو أن لا يكون ظاهر الدلالة على المراد به وله سببان :
الأول : ما يرجع إلى التقطع وهو أن يختل الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل
منه إلى معناه كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا ملككأ أهر أمه حتى أبوه يتقاربسه
ووضع الزرويني قاعدة للكلام الخالي من التعقيد اللغوي وقال الله : « وما سلم نظمه
من الخلل فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضمحار أو غير
ذلك الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية (١) . وهذا ما تكلم عليه
حينئذ قاهر وسماه « التعقيد » أو « فساد النظم » (٢) وادخله ابن ستان في بحث
التقديم والتأخير (٣) ، وعدّه ابن الاثير من المعاطلة المعنوية التي سببها التقديم
والتأخير (٤) .

الثاني : ما يرجع إلى المعنى وهو أن لا يكون في انتقال الذهن من المعنى الأول
إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به قاهرأ كقول العباس بن الاحنف :
سأطلبُ بَعْدَ السَّارِجِ عَنكُمْ التَّوْبَى وَتَسْكَبُ عَيْنِي الدَّمْعُ لِحُجْمَتِهَا

(١) الأيضاح ص ٦٠ .

(٢) لسرر البلاغة ص ١٦٢ .

(٣) سر القضاة ص ١٦٥ .

(٤) لئال السراج ص ١٩٤ ، ج ٢ ص ٤٤ وما بعدها .

كأن يسكب الندوع عما يوجهه الفراق من الحزن ، وأصاب ، لأن من شأن
البكاء أن يكون كتابة عنه كقولهم : أبكاني واضحكني ، أي : اساقني وسرني ،
كما قال :

أبكاني الدهر وبأ ريبسا أضحكني الدهر بما يسرني
ثم طرد ذلك في نقيضه فأراد أن يكتفى عما يوجهه حوام التلاقي من السرور بالجمود
لفظه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر ، وانحطاً لأن
الجمود خلو العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها فلا يكون كتابة عن السرور
وانما يكون كتابة عن البخل كما قال الشاعر :

ألا أن حبسنا لم نجد يوم واسط عليك يجاري معها لجمود
وضبط القزويني الكلام الخالي من التعقيد وقال عنه : « ما كان الانتقال من معناه
الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهراً حتى يتخيل إلى السامع أنه فهمه
من حاق القطع » (١) .

وأضاف إلى ذلك خلوص الكلام من كثرة التكرار ، كقول المتنبي :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سيوح لها منها عليها شواهد
وخلوه من تتابع الإضافات ، كقول ابن بابك :

حمامة جرعاً حومة الجنك اسجعي قالت برأى من معاد وسجع
وكان الصاحب بن عباد قد أشار إليه بقوله : « بابك والإضافات للتداخلة فإتها
لا تحسن ، ويرى القزويني أن هذا الشرط لا يؤخذ به دائماً ، لأن ذلك أن انفسى
بالقطع إلى النقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه وإلا فلا تخل بالتصاحف ،
وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « الكرم بن الكرم بن الكرم يوسف
ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وهذا رأي عبد القاهر الذي قال : « ولكنه إذا
سلم من الاستكراه ملح ولطفه :
ومما حسن فيه قول ابن المعتز :

(١) الإيضاح ص ٦٠ .

وطبقت لتدبر الراح أهلي جلق
ولما حاد به حسنا جميلاً نزل الطائر بصفت خلاصاً له :

ويروى الشعر مثل عرقسسي وهو على أن يزيد مجتهد
ويسير في الترويض يوماً قيساً ر العاني الدقائق منقصد (١)
وما يعمل بالانطاف المركبة : القنوت التي سماها البلاغيون ه الحسنات القنطية
وهي عشية الاحية في راحة الانطاف ، وينبغي ان توضع في بحث النصاحة لان
فان تأتيا في الكلام ، وانما يقع الترويض صاحب دفتاح العلوم ، فنحدث عنها في
الذبح كان درستها مما ينبغي واكثر نقدا ، وقد سبق إلى ذلك علماء البلاغة كابن
الانبار الذي قسم النصاحة القنطية قسمين :

الأول : في النقلة القنوت .

الثاني : في الانطاف المركبة ، وهي النجع ، والنصريح ، والتجنيس ، والترصيح
والمعانيق ، والقرينة ، والاضلاع ، وسجع الانطاف ، وتكرار الحروف .
هذه دراسة البلاغيين النصاحة أما النقاد فقد تحدثوا عن دلة الانطاف وبحثها
وسورها وجزائها ولقنها ونزائنها وغير ذلك مما لفتهم في كتب البلاغة والقند ،
وهو حديث في طريقة وجداء ينسب مذكره البلاغيون عن النصاحة واولصالها .

(١) الايضاح ص ٤٨ ، ودلائل الامتياز ص ٨٢ .

المبحث الثاني

البلاغة

كلمة والبلاغة من الكلمات التي شاع استعمالها في كتب الأدب ، وكانت هي والبصحة صوتين متصلان معاً أو متصلين الواحدة في موضع الأخرى .
في اللغة :

والبلاغة - في اللغة - الانتهاء والوصول ، وفي لسان العرب : وبليغ الشيء يبلغ بليوغاً وبلاغاً : وصل وانتهى . بليغ بالشئ : وصل إلى مراده . البلاغ ما يبلغ به ويترصل إلى الشيء المطلوب . البلاغ : ما يملك ، والكتابة . الأبلاغ : الأفعال بلغت المكان بليوغاً : وصلت إليه ، وكذا إذا شارفت عليه .

وأشار ابن منظور إلى المعنى الاصطلاحي فقال : والبلاغة : فصاحة . والبليغ والبليغ : البليغ من الرجال . ورجل بليغ وبليغٌ وبليغٌ : حسن الكلام فصيحاً بليغ بعبارة لسانه كأنه كأنه ما في قلبه ، والجمع بليغاء . وقد بليغٌ بلاغة : صار بليغاً . وليس في هذا القول غير المعنى العام للكلمة ، فهي - أولاً - الانتهاء والوصول إلى الغاية ، وهي - ثانياً - الفصاحة ، أي أن الكلمتين مترادفتان . وهذا رأي معظم القرويين والبلاغيين الأوائل .
في القرآن :

وكرر للساننا هذه النغمة في التراث العربي رأيناها شائعة معروفة ، وقد جاءت لفظة بليغ في قوله تعالى : فأعرض عنهم ، وأعرض عنهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً . (١)

يقول الراغب الاصطفايي في تفسيرها : والبلاغة يقال على وجهين : أحدهما أن يكون بديهة بليغاً ، وذلك بأن يجمع ثلاثة لوصف : صواباً في موضوع لفته ،

(١) سورة ٦٣

وطبقاً للمعنى المقصود، وصديقاً في نفسه: ومعنى احترام وصف من ذلك وكان ناقصاً في البلاغة.

والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له وهو أن يقصد القائل أمراً فبرده على وجه حقيق أن يقبله للمقول له. وقوله تعالى: «وقال لهم في أنفسهم قولاً بليغاً يصح عمله على اللعين» (١).

ودفع الزمخشري معناها نقسباً في تفسيرها، وأشار إلى تأثيرها رمزاً في قوله: «قل لهم قولاً بليغاً مؤثراً في قلوبهم يشتمون به الغتماء ويستشعرون من الخوف استشاراً» (٢).

في الحديث:

وليس في أحاديث النبي - صل الله عليه وسلم - ما يشير إلى هذا المعنى مع كثرة ما جاءه من مشقاتها في كلامه (٣). فقد ورد عنه قوله: «وإن الله يفض البليغ الذي يتخلل بلسانه». وجاء عنه أنه حاب فيه المشادين والفرلرين والذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها (٤).

في التراث:

ولا تكاد نعتُر على بعيننا في فترة صدر الاسلام، وحينما جاء العصر الاموي نجد معاوية بن أبي سفيان يسأل صحار بن عياش: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ وقال: «شره نجيش به صلورتنا فظلمه على ألسنتنا». وقال له معاوية: ما تعدون بالبلاغة فيكم؟ قال: «الايجاز». قال له معاوية: «وما الايجاز؟» قال صحار: «ان نجيب فلا تبطله، ونقول فلا تخطي» (٥).

وفي كتاب «البيان والبيان» تعريفات كثيرة لبلاغة عند العرب وغيرهم، فقد قيل للفرسي: ما البلاغة؟ قال معرفة الفصل من الوصل: وقيل لليوناني: ما البلاغة؟

(١) الترددات في غريب القرآن ص ٦٠.

(٢) الكشف ج ١ ص ٤٠٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ١ ص ١٥٢.

(٤) البيان والبيان ج ١ ص ٢٧١.

(٥) البيان ج ١ ص ٩٦.

قال : حسن الاقتضاب عند العبادة ، والغزارة يوم الاطالة . وقيل الهندي : ما البلاغة ؟
قال : وضوح الدلالة وانتهاز القرصنة وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الفن :
« جماع البلاغة البصر بالحجة ، والتمرة بمواضع القرصنة » (١) .

ولقد رآها عمرو بن عبيد (- ١٤٤ هـ) في أول الامر تفسيراً حيناً حين قيل
له ما البلاغة ؟ قال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع
رشدك وحوالب خيك . قال السائل : ليس هذا تريد . قال : من لم يحسن أن
يسكت لم يحسن أن يشبع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال :
ليس هذا تريد . قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن مشر الايادي
يكناه ، أي قلبه الكلام ، ومنه قيل « رجل بكى » . وكانوا يكرهون ان يزيد منطق
الرجل على عقله . قال السائل : ليس هذا تريد . قال كانوا يخالفون من فتنه القول
ومن سقطات الكلام مالا يخالفون من فتنه السكوت ومن سقطات الصمت . قال
السائل : ليس هذا تريد . قال عمرو : فكأنك تريد تخيير اللفظ في حسن الاقتران ؟
قال : نعم . قال : لك اذا أوتيت تقرير حجة الله في عقول الكلكلين وتخفيف
المؤنة على السمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المرئيين بالالفاظ المسحونة
في الآذان ، القبول عند الاذعان رغبة في سرعة استجابتهم وتقي الشواغل عن
قلوبهم بالمروعة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب
واستحققت على الله جزيل الثواب (٢) .

وقال الاصمعي (- ٢١٦ هـ) عن البلخي أنه : « من طين المقفصل واختاك عن
المفسر » (٣) :

وقال العياشي (- ٢٢٠ هـ) أن « كل من أنهمك حاجته من غير اعادة ولا
حسنة فانظها ما غرض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق » (٤) :

(١) البيان ج ١ ص ٨٨ .

(٢) البيان ج ١ ص ١١٤ ، ونظر عين الاخبار ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) البيان ج ١ ص ١٠٦ .

(٤) البيان ج ١ ص ١١٣ .

الجاحظ :

و لم يبرهنها الجاحظ (- ٢٥٥) بعد أن ذكر كثيراً من تعريفاتها ، واكتفى بأن اختار قولاً أعجبه . يقول : « وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتهدناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، واللفظ معناه ، فلا يكون لفظه إل سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » (١) .

وليس في هذا التعريف ما يشير إلى المعنى الاصطلاحي الذي حدده البلاغيون . والجاحظ في كل ما ذكر لا يوضح بين التفصاح والبلاغة حلاً ، فكثيراً ما كان مترادفين ، وهما عند البيان بمعنى الواحد قبل أن يفيد المتأخرون .

الميرد :

والميرد (- ٢٨٥) رسالة صغيرة سماها « البلاغة » أجاب فيها عن رسالة ابن الروائق الذي سأله : « أي البلاغين أبلغ ؟ أ بلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام الشئو والسيح وأيهما عندك - أعزك الله - أبلغ ؟ » .

وأجاب الميرد : « إن حتى البلاغة احاطة القول بالشيء واختيار للكلام وحسن النظر حتى تكون للكلمة مقاربة اختها ومعاضلة شكلها ، وأن يقرب بها الميرد ، ويخلف منها الفضول » (٢) .

ومصطلح « البلاغة » في هذه الرسالة لا يعني العلم المعروف ، وإنما هو تعبير لبعض معانيها . وإنما لم نجد فيها ما نطمح إليه فلما نستطيع القول أن الميرد كان من أطلق « البلاغة » على بعض رسالته .

المسكوي :

ويظهر مصطلح « البلاغة » بوضوح في « كتاب الصائحين » لأبي حلال المسكوي (- ٣٩٥) الذي قال : « إن أحسن العلوم بالتعلم ولولادها بالتحفظ بعد المعرفة بالله - جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة التفصاح » (٣) وقال : « البلاغة من قولهم

(١) البيان ج ١ ص ١١٥ .

(٢) البلاغة ص ٥٩ .

(٣) كتاب الصائحين ص ١ .

بلغت المكان ، اذا انتهت اليها وبلغتها غيري ، وبلغ الشيء انتهاءه والبلغة في الشيء :-
 الانتهاء الى غاية ، سميت البلاغة ، بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع ،
 فيفهمه . وسميت البلغة بلغة لانك تبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ
 ايضاً (١) وأبدي رأيه في تعريفها ، وحدها بقوله : «البلاغة : كل ما تبلغ
 به قلب السامع فتسكنه في نفسه كتسكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض
 حسن » (٢) .

والبلاغة - عنه - من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، ولذلك لا يجوز
 ان يسمى الله بليغاً ، إذ لا يجوز ان يوصف بصفة موضوعها الكلام . وتسمية المتكلم
 بليغ توسع وحقيقته أن كلامه بليغ كما نقول : فرجل محكم ، وتعني
 أن أفعاله محكمة . قال تعالى وحكمة بالغة (٣) فجعل البلاغة من صفة المحكمة
 ولم يجعلها من صفة المحكم ، الا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بالله
 بليغ كالحقيقة .

وفي كتاب الصائعين وآيات :

الأول : أن الفصاحة والبلاغة ترجمان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما ،
 لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاطهار له .

والثاني : ان الفصاحة والبلاغة مختلفتان ، ذلك ان الفصاحة تمام آلة البيان فهي
 مقصورة على اللفظ لان الالة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما هي
 انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى (٤) .

في صان :

وحلول ابن سنان الخفاجي (- ٤٦٦هـ) ان بعد البلاغة ويرسم معالمها غير
 انه لم يأت بالكلمة الفاصلة والتعريف الجامع المانع : ولم يك وحده الذي فعل ذلك

(١) كتاب الصائعين ص ٦ .

(٢) كتاب الصائعين ص ١٠ .

(٣) القر ٥ .

(٤) كتاب الصائعين ص ٧ .

قد سرت بالبلاغة تعريفات كثيرة نقلها الجاحظ في البيان والتبيين ، وأبو هلال في كتاب الصحاح ، ، ولذلك أشار الى اضطراب القوم في حدّها ، والتوفيق حل كتبها وقال : « وقد حدّ الناس البلاغة بحدود اذا حلفت كانت كالرسوم والعلام ، وليست بالحدود الصحيحة . فمن ذلك قول بعضهم ملحمة دالة ، وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصراً لها وحداً يحيط قيس ذلك بممكن النحول الاشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد » (١) .

ولم يعرف البلاغة ، وإنما فرّق بينها وبين الفصاحة وقال : « والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني : لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام يبلغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً » (٢) .
 لقد وضع ابن سنان حدّاً قاصداً بين المصطلحين ، وحصر الفصاحة في الالفاظ والبلاغة في المعاني والالفاظ ، واصبحت الفصاحة شرطاً لبلاغة واحد جزئياً . وهذه التفاتة حسنة ، ولكنه اطلق بالفصاحة ، على موضوعات البلاغة وسمى كتابه «سر الفصاحة» ومعنى ذلك أنها تشمل الالفاظ والمعاني . وقد أوضح ذلك بقوله : « هو في البلاغة اقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو واذا كانت الفصاحة شرطها وأحد جزئها فكلامي على المقصود - وهو الفصاحة - غير متميز الا في التوضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما تقدمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فعام لا يختص ، وخليط لا ينقسم » (٣) :

وابن سنان حينما ينتقل الى تأليف الكلام يظل مرتبطاً بالحديث عن الالفاظ ، لان البلاغة أن توضع الالفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً ، تقديماً أو تأخيراً ، لياً أو حشواً ، وغير ذلك مما فصل القول فيه :

(١) سر الفصاحة ص ١٠

(٢) سر الفصاحة ص ١٠

(٣) سر الفصاحة ص ١١

عبد القاهر :

ولم يفرق عبد القاهر (٤٧١هـ) أو (٤٧٤هـ) بين المصطلحين ، لانهما يميز بهما عن دفضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا أو تكلموا واعتبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلمهم ما في قلوبهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (١) .

والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تأتي مرادفة عنده ، ومعنى ذلك أن الحدود بينها لم تتضح ، وأن هذه المصطلحات لم تستقل وتأخذ معناها الدقيق .
الرازي :

ولم تأخذ اللفظة والبلاغة دلالتها المعروفة عند فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) وهي عنده : «بلوغ الرجل بجارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والاطلاق المملئ» (٢) ولكنه ربط الفصاحة والبلاغة بالمعنى ، وكما منحى عبد القاهر في فهمها .
ابن الأثير :

وقال ابن الأثير (٦٣٧هـ -) أن الكلام يسمى بليغاً لانه بلغ الأوصاف التقضية والعموية ، والبلاغة شاملة للاتقاط والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان وليس كل حيوان الساقا ، وكذلك يقال : « كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغ » وفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهي أنها لا تكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة المفردة لا تمت بالبلاغة وتتمت بالفصاحة إذ يوجد فيها لوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لطلوها من المعنى المقيد الذي ينتظم كلاماً (٣) .

السكاكي :

وحينما قسم السكاكي (٦٢٦هـ -) البلاغة ووضع معالمها في كتابه « مفتاح العلوم » عرفها تعريفاً دقيقاً وقال : « هي بلوغ التكلم في تأدية المعاني حدماً له اختصاص

(١) دلائل الإيجاز ص ٢٥ .

(٢) نهاية الإيجاز ص ٩ .

(٣) نقل السراج ١ ص ٦٩ .

بتوفية خواص التراكيب حنفا ، وايراد التشبيه والتمثيل والكتابة على وجهها ، (١) :
وبهذا التعريف أدخل مباحث علم المعاني وعلم البيان ، وأخرج مباحث البيان
لانه وجوه يلقى بها لتحسين الكلام وهي ليست من مرجعي البلاغة .

وبالبلاغة طرقان : أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يترامى لاحد قارعهما وبينهما
مراتب متفاوتة تكاد تحوت الحصر ، فمن الأسفل تبتدىء البلاغة ، وهو القدر
الذي اذا نقص منه شيء التحق ذلك للكلام باصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد
متصاعدة الى أن تبلغ حد الإعجاز ، وهو الطرف الاعلى وما يقرب منه .

ولم يعرف الفصاحة واكتفى بتقسيمها الى قسمين : قسم راجع الى المعنى ،
وقسم راجع الى اللفظ ، ولم يجعلها لازمة للبلاغة التي وحصر مرجعها في المعاني
والبيان . وقد أشار القزويني الى ذلك بقوله : « جعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة ،
وحصر مرجع البلاغة في القتين ، ولم يجعل الفصاحة مرجعاً لشيء منهما » (٢)
وقال الشافعي : « لم يجعل البلاغة مستلزماً للفصاحة ، وحصر مرجعها في
المعاني والبيان دون اللغة والصرف والنحو » (٣) ، ورأى أن مرجعها الى هذه العلوم
جميعاً لا الى مجرد المعاني والبيان .

ولكن السكاكي - مع ذلك كله - رأى أن البلاغة بمرجعها والفصاحة بنوعها
« مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين » (٤) ، ولذلك
تراه حينما حلل بعض الآيات القرآنية اخذ من مرجعي البلاغة ومن الفصاحة مقياساً
لاظهار ما فيها من صور بيانية ، ومن روعة وتأثير في النفوس .

القزويني :

وكان الخطيب القزويني (- ٨٧٣٩) آخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين
وميز بين بلاغة الكلام وبلاغة التكلم فقال عن الاولى : « أما بلاغة الكلام فهي
مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .

(٢) الايضاح ص ٢٤ .

(٣) المغرور ص ٣ .

(٤) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

مفوتة ، ، مقام التذكير يبين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يبين مقام التقييد ،
ومقام التقديم يبين مقام التأخير ، ومقام الذكر يبين مقام الخلف ومقام التقصر
يبين مقام خلافة ، ومقام الفصل يبين مقام الوصل ، ومقام الابهاز يبين مقام
الاشاب والمساواة ، وكذا عطف اللاشي يبين عطف العبي ، وكذا لكل
كلمة مع صاحبها مقام . وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه عبد القاهر
النظم ، (١) .

وقال عن الكتابة : هو ما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام
بليغ ، (٢) .

وقرر ان كل بليغ - كلاماً كان أم متكلماً - فصيح ، وليس كل فصيح -
بليغاً ، وأن البلاغة في الكلام مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ،
والى تمييز الكلام للتصحيح من غيره .

ولسم البلاغة الى ثلاثة اقسام ، فكان ما يمتاز به من الجفلاً علم العالي ، وما
يتميز به عن التعقيد المعنوي علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد
رعاية تليقته على مقتضى الحال وفصاحته علم البديع . فالبلاغة - عنده - ثلاثة :

١. علم العالي

٢. علم البيان

٣. علم البديع

ولم يخرج البلاغيون المتأخرون عن هذا التعريف والتقسيم ، واصبح مصطلح
البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة .

(١) الايضاح ص ٩ ، والخصيص ص ٣٣ . - ٣٢ -
(٢) الايضاح ص ١١ .